

هل تريد أن تصوم حقاً؟

القديس إينوكنديوس رئيس أساقفة خرسون

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

"لنصُ صوماً مقبولاً مرضياً للرب، لأن الصيام الحقيقي هو الاغتراب من الشرور وضبط اللسان ومباينة الغضب والانفصال من الوقيعه والشهوات والكذب والحلف. فباجتناب هذه يكون صومنا حقيقياً مقبولاً". (أبوستيخن صلاة المساء في الإثنين من السبته الأولى).

هذا المقطع الخشوعي (ذيومالا) يمكن أن يسمّى بحق تعليم الكنيسة لجميع الأصوام المقدسة. غالباً ما تكون كلماتنا وعظمتنا، بسبب ضعفها الشديد، طويلة. بينما تعليم الكنيسة مقتضب بقدر ما هو قوي وحقيقي. لذلك، من الضروري للغاية أن نوجه انتباهنا إليه ونفكر في ما تعلّمه الكنيسة المقدسة بشأن الصوم. "لنصُ صوماً مقبولاً ومرضياً للرب!" هذا يعني أن هناك صوم غير مقبول ولا يرضي الرب! أي نوع من الصيام هو هذا؟

إنه النوع حيث لا تأكل فيه كالمعتاد، أو ربما لا تأكل على الإطلاق، ولكن بغضبك وتعنتك، تأكل روح وجسد من هم في متناول يدك، سواء كانوا خداماً أو أقارب؛ هو أن تصوم فتسقط على الأرض في الكنيسة وتطلب مغفرة الخطايا لنفسك، طالباً أن تُغفر كما أنت تغفر كل التجاوزات التي وجهت إليك، ثم تغادر الكنيسة، فتذهب إلى المحكمة لتضيّق على مدينك المسكين، لتجمع كل شيء حتى آخر قرش منه، أو تلقيه في السجن وتفقر منزله وعائلته بالكامل. الصوم لا يرضي الرب عندما يبدو أنك تتواضع في الظاهر وتقول إنك أول الخاطئة، فيما داخلياً، لا تعرف مقياس فضائلك الوهمية، فتضع نفسك فوق الجميع في أفكارك، وتجعل نفسك قاضي الكون، على استعداد للحكم وإدانة الجميع وكل شيء. ما لا يرضي الله هو أن تصوم وقت تريد وتتوقع أن تنفتح لك كل كنوز نعمة الله لأجل سجداتك الصغيرة وبعض التهنيدات، وأن كل جراح ضميرك سوف تلتئم، وأنت ستساق إلى العشاء الملكي وتتغذى بجسد المسيح ودمه؛ بينما أنت نفسك، تسمع كل آهات وصرخات إخوتك المساكين، لست مستعداً لمشاركة جزء صغير معهم، مما يفيض عنك؛ بقلب بارد، أنت تترك المرضى والمتألمين بدون أي مساعدة، وتتردد في جلب الغرباء تحت سقفك، وتستكثر مشاركة الذين يجوعون - لا جسديك ودمك (فليبيا لك)، بل تلك الجبال والتلال من الطعام الذي يتسبب عملياً في انفجار مخازن الحبوب عندك. الصيام لا يرضي الله لأنك تخاف من وصول كوب الماء الساخن إلى شفطيك، بل لأن ما يخرج باستمرار من هذه الشفاه، كالدخان من الفرن، هو الكلام الفاسد المتأسن والسخرية المرّة اللاذعة والإشارات المفعممة بالتجارب والعدوى الروحية. لا ينبغي أن يجرؤ كل الصائمين على هذا الشكل على أن يترجوا رحمة من الرب. إن

صومهم ليس فقط غير مرض، بل هو رجس عند الله، بحسب قول النبي. من الأفضل لك أن تأكل ما تزيد، ولكن في نفس الوقت تطعم الذين يموتون من الجوع حتى خارج الصيام؛ من الأفضل لك أن تستمر في التزين بملابسك كما من قبل، ولكن في نفس الوقت، استخدم ما يزيد لديك من الثياب، تلك المعلقة مكتوفة الأيدي والعتّ يأكلها، لتستر عري إخوتك المساكين الذين يئنون من البرد؛ قد من الأفضل لك أن لا تقاطع الترفيه والمرح المعتادين، ولكن أثناء التسكّع، أن تجلب الراحة والفرح لأولئك الذين قد نَسُوا من زمان طويل أن الفرح قد يوجد على الأرض.

"الصيام الحقيقي هو الاغتراب من الشرور وضبط اللسان ومباينة الغضب والانفصال من الوقعية والشهوات والكذب والحلف."

لا ينبغي أن يكون انفصالنا عن كل هذه الرذائل صومًا وإكراهًا وعملاً بالنسبة لنا، بل هو الشيء الأكثر طبيعية والسلام والفرح. لكن، كوننا مشبعين بالخطيئة وإرادة الذات من أجدادنا، وقد اعتدنا على انتهاك قوانين الإمساك، حتى أصبحت طبيعتنا على دراية بالأهواء والرذائل وصار اتباع هذه الأهواء والإرادة الشريرة شبه طبيعي كغذاء الجسم اليومي. لذلك، من يرغب في التحرر من الخطايا عليه أن يكبح نفسه باستمرار عن الشر ويجبر نفسه على فعل الخير، تمامًا كما يحرم الصائمون أنفسهم من الطعام ويجبرون أنفسهم على التفكير في الله. هذا الامتناع عن الأهواء والرذائل، بحسب تعليم الكنيسة، هو صوم حقيقي يرضي الرب. الصيام الخارجي ليس ضروريًا دائمًا، ولكن هذا الصيام الداخلي ضروري في جميع الأوقات. الصوم الخارجي يزول وينتهي؛ لكن هذا الصوم الروحي مستمر ويجب أن ينتهي فقط مع حياتنا، عندما نتخلى عن الجسد الفاني المحب للخطيئة، سنزئ أنفسنا بعدم الفساد واللاهوى.

إذًا، هل تريد أن تصوم حقًا؟ قبل كل شيء، امنع لسانك عن كل كلمة بظالة، وخاصة الكلمات الفاسدة وغير اللائقة. ابدأ صومًا روحيًا مع هذا العضو الصغير من الجسد؛ فهذا العضو، مع صغره، هو عدو عظيم وخصم عنيد. متى تغلبت على عناده، تصير قادرًا على لجم الجسد كله (يعقوب ٣:٢). وإلا فإن لسانك كالحصان الوحشي الشرس سوف يجرّك أنت وصومك عبر براري الكذب والضعينة والخداع.

أتريد أن تصوم حقًا؟ إلى جانب الطعام، تخلّ عن كل حقد وغضب وتذمّر ومشاحنة. كن هادئًا ووديعًا ومتواضعًا ومترفقًا ومحبًا في كل شيء ومع الجميع. هذا تقتضيه الحشمة حتى خارج الصوم. خلاف ذلك، إذا كنت لا تزال مكابرًا ومشاكسًا، فسيعتقد البعض، عن غير قصد، أنك غاضب كطفل صغير لأن الكنيسة توبّخك على تناول أطباقك المفضلة.

أتريد أن تصوم حقًا؟ إلى جانب الطعام، افصل كل الأهواء الجسدية الأخرى عن نفسك. لأن إنسانك القديم والشرير يعميك ويدمرك ليس فقط بشبع الجسد. إن الإفراط في الطعام لا يؤذي أحدًا سواك،

بينما الأنواع الأخرى من الجسديات والشهوانية تضر بالكثيرين غيرك. تخلّ عن كل هذا. أزل هذا الكتاب العابق بالشهوة والإباحية من منضدتك؛ أزل صور الإغراء عن جدران غرفتك؛ من ثمّ نُقِّ عقلك وذاكرتك من الصور الشهوانية (قدر الإمكان في المرة الأولى، لأن هذا لا يمكن إتمامه على الفور فالعقل ليس مثل جدران المنزل)، أقول ارم كل هذه الصور وثبّت صليب المسيح وصورة موته مكانها في ذاكرتك وخيالك.

أتريد أن تصوم حقاً؟ إذا كان لديك أي رسائل جائرة تتعلق باختلاس ممتلكات شخص آخر، قم بتمزيقها؛ أوقف القضية التي بدأت في المحكمة حول هذه المسألة؛ تنازل قدر الإمكان، حتى عن حقوقك الخاصة، حتى لا تجرّ نفسك إلى المحاكم، مثل غير المسيحي. [١] يجب أن يكون المسيحي مختلفاً ليس فقط في الكنيسة، بل أيضاً في المحكمة.

أتريد أن تصوم حقاً؟ انظر كيف يمكنك أن تخدم أصغر إخوتك في المسيح باسم الرب، وابدأ فوراً هذا العمل الخيري. اعط الذين يموتون من الجوع بشكل عملي، من ذنب، وصولاً إلى مخازن حبوبك. ألبس العراة، استقبل اليتيم، ارع المنكوب، ورزّ المحبوس. لأنه من الضروري أن يخرج بعض أنواع الفاكهة من شجرة عظيمة كالصوم الكبير. وأي ثمار أفضل من محبة البشر عندما تطلب رحمة الله بالصوم؟ إن صوماً كهذا يكون مرضياً للرب! من يجمع العفة الروحية إلى الجسدية لا يفسد أجره. أو بالأحرى، يكون قد حصل عليها بالفعل هنا والآن. لماذا نصوم؟ لا شك أنه ليس لتوفير بعض الطعام غير المأكول، بل لترويض الجسد، وتهدئة النفس، وإحياء الضمير، واجتذاب نعمة الله. ولكن عندما نصح أكثر طهارةً وعفةً في الفكر، وأكثر صدقاً وتنوراً في الكلمة، وأكثر وداعة وأكثر رحمة في الشخصية، وأكثر عدلاً وإحساناً في العمل، فإن بهذه الوسيلة بالذات بمساعدة نعمة الله، يتحقق هدف الصوم بالفعل فينا - في البداية، بالطبع بشكل ضعيف وغير كامل، لكن بعد ذلك - أكثر فأكثر، حتى نصح من جميع النواحي كما ينبغي أن يكون أتباع المسيح.

خلافاً لذلك يكون صومنا كدواء يأخذه المريض، ثم يتسلل بدافع الغباء والعصبية، إلى كل العادات القديمة التي سببت مرضه. ما الذي يمكن توقعه من مثل هذا الدواء سوى تفاقم المرض، وهو الأمر الأكثر خطورة لأننا، على أمل الشفاء، نعتقد أننا نتعافى؟ في هذه الحالة، سيكون من الأفضل عدم الصيام على الإطلاق، لأننا على الأقل لن نخدع أنفسنا، معتقدين أننا بعيدون عن الخطر. آمين.

* عظة الخميس من السبّة الأولى في الصوم.

[١] يشير القديس إينوكنديوس إلى حقيقة أن لدى المسيحيين وصية محددة، أعطها الرسول بولس، ألا نحاكم أحدنا الآخر (المترجم). Source. St. Innocent of Kherson. Do You Want to Fast Truly? A Homily for Clean Thursday. Orthodox Christianity (orthochristian). Translation by Jesse Dominick. <https://orthochristian.com/145095.html>